لدويج فان بتهوفن

١ — تمهيد

كان رجلٌ يسيرُ ذات مساء بين المزارع والحقول ، والفصلُ خريفٌ والشفقُ يلقي بظلاله على الارض . وكان الرجلُ كئيباً كآبة المتذوق الفقير الذي فُرض على عبقريته احتمال التأسف والمذلة والهوان . وكان كئيباً كآبة القلب الكبير عاش على غمٍّ وحرمان ، ولم يجدْ بين بني الانسان روحاً تبادلهُ عواطف الاعزاز والحنان . وكان كئيباً لاستشعاره بأن مصيبةً مجهولةً ستدهمهُ عمّا قريب

كذّهُ التعبُ ، والمنازل في الخلاء اشعلت مصابيحها ذات النور المرتعش . فقصد إلى أقرب تلك المنازل يطلبُ الراحة قبل استئناف السير . ولحظ أهلُ الدار نظر الضيف موجهاً إلى البيانو المفتوح فدعوهُ إلى التوقيع فيما لو كان لهُ بالفنّ إلمام

جلس الغريبُ إلى البيانو وعزف . حتى إذا ما أحكمت أناملهُ الايقاعات الخافقة نهض فرأى وجوه القائمين حولهُ وقد لاحت عليها سماتُ الدهشة والتأثر ، وأبصر الشفاه منهم متحركةً تكاد يُدركُ ما ينطقون به . إلاَّ أنهُ لم يسمع اصواتهم فاستفهم عمّا يقولون فردّوا عليه يكررون السؤال : «كثيراً ما حدّثونا عن موسيقيٍّ عظيمٍ اسمهُ بتهوفن . وإنّ مَن يعزفُ مثلما عزفتَ ، و يخلقُ من أوتار النحاس الروحَ التي خلقتَ ، فذلك لا بدّ أن يكون هو بتهوفن . أفأنتَ بتهوفن ؟ »

كانت الشفاهُ تتحركُ والرجلُ يتجلى في تلك الوجوه آيات الروعة والخشوع . لكنّ الاصوات الخاطبة لم تصلْ اليه . وكان ثمّت منشأ النباغ بتهوفن في سمعهِ ، لأنّ المقادير قضت بأن يُختم على سمعهِ طول الحياة

٢ — لمحة من ترجمته

هذه النادرة عرّفتني باسم بتهوفن في نشأتي الاولى وعند أوّل عهدي بالبيانو . ولستُ أدري أأنا قرأتها (كما كنتُ أقرأ يومئذٍ ...) في كتاب أم سمعتها في حديث أو خطاب ؟ وهل هي وصلت اليَّ في صيغة رواية ، ام كواقعةٍ تاريخية ، ام كنذلكة ابتدعها الوهمُ والتخيل ؟ إنها شديدة الوقع والتأثير ، ويؤخذُ منها انّ الصمم كان مفاجئاً في حين انهُ جاء بالتدريج . نظهرت منهُ العوارضُ الاولى سنة ١٨٠١ والموسيقيُّ في سن الثلاثين ينعمُ بنضج فنهِ وازدهار عبقريتهِ . وضياعاً ذهبت حيلُ الطبّ وجهودُ الاطباء .

قائمٌ العالمان حتى تبلّغت العلّةُ بذلك السمع الدرّس الحديد ، وضرب الصائحُ بينهُ وبين عالم الاصوات الى الابد !

تُبيعةٌ في حياة من تغذّى عبقريتهُ بالمدمات والذبذبات ، وهي اظهر الكوارث في حياته الخارجية . بيد انهُ — شأن جميع الافذاذ والمتفوّقين في الشعور والادراك — كان منهلُ الآلام في غزارة ضميره بينبوع الحسرات والكروب كان يتفجّرُ لهُ من صميم وجدانه. ومن طريق التأثرات والانفعالات النفسية والغموم البكاء اتصل بجوهر الحياة الشاملة . وفي محراب اللهفة والاسى راض فنهُ حتى امتلك منهُ الاعنة وجنى من غوره ومداه غاية ما تنالهُ المقدرةُ الانسانية في اعلى مراتبها واسنى مجاليها . حتى غدا زعيم اركان الموسيقى بين المتقدمين والمتأخرين

امّا ترجمةُ حياته فنتلخّصُ فيما يلي : ذهب بعضُ المؤرخين الى انهُ ولد سنة ١٧٧٢ من والدين موسيقيين جوّالين . وزعم آخرون انهُ ابنٌ غير شرعيّ لفريدريك غليوم ملك بروسيا . ولكنهم احتدوا في النهاية الى حقيقة ترجمته واتفقوا على انهُ ولد في بون في ١٦ دسمبر سنة ١٧٧٠ وتوفي في ڤينا في ٢٦ مارس ١٨٢٧ . ورغم انهُ قضى اكثر حياته في هذه المدينة وعُرف عنهُ انهُ المانيُّ الجنسية فانّ عائلتهُ ذات اصلٍ فلاميّ . كان اسلافها في القرن السادس عشر يقطنون القرى المجاورة لمدينة لوڤان ، وهم في غير سعةٍ من العيش ولكنهم اهلُ ذكاء ونشاط يزاولون اعمال الفلاحة والزراعة

واستوطن احدهم انڤرس سنة ١٦٥٠ وتزوج ولدهُ من فتاة بلجيكية فما لبث ان صار من اصحاب الهيئة والوجاهة . الاّ ان ابنهُ الذي قدّر لهُ ان يكون أباً لستة ابناء وبنات ، الموسيقيّ العظيم ثانيهم — كان سكّيراً مدمناً الخمر ، سيّئ السيرة والاخلاق ، كثيف النفس ، حادّاً نزقاً ، بليد الادراك ، يعيش من الترتيل في كنيسة البلدة . اما زوجتهُ فعلى ضآلة حسبها وحقارة نسبها (لانها كانت ابنة طاهٍ وارملة خادم) كانت صالحة فاضلة . وهذا الخول في نسبة بتهوڤن من شأنه ان يذلّ كلّ متغطرسٍ يباهي باصله ومحتده ، اذ يريه انّ العظمة الحقّة ليست حيث هو زاعم

وكانت طفولة لدويج الصغير مترعةً غمّاً وعذاباً وحرماناً . وهل ما يوازي تعاسة الولد بين أبويه في حياة عائلية شقيّة ؟ سيما اذا لم يقم الوالدُ بحاجة ابنه المادية ولم ينلهُ نصيبهُ من الحبة والانعطاف بل يرهقهُ بتبعة إعالة الاسرة . وكلّما ابدى الولدُ كفايةً وجهاداً زادت تطافلةُ الاب وكثرت مطالبهُ

تلك كانت حالة الصغير . وقد أبكرت مواهبه إلى الظهور فأدهش اساتذته وتنبأ احدهم بأن هذا سيكون « موتسارت » آخر . ومنذ بلوغه الثانية عشرة من سنيه حل محل استاذ له في العزف على ارغن الكنيسة ، وأنشأ يتدرج في الوظائف الموسيقية ويضع التلحينات لقطعه الاول من طائفة « السوناتا » التي يركز فيها بعدئذ شأنه في سواها . حتى أذن له في الذهاب الى فينا ، وهو في الرابعة عشرة ، ومعه توصية الى موتسارت الذي كان إذ ذاك في اوج شهرته . وهناك في حضرة الاستاذ وقّع قطعته الاولى فقوبلت بفتور . فطلب ان يقترح عليه موضوع تلحين يعالجه لساعته ، فتم له ما اراد . وارتجل نبذة ضمّنها من التنوع والعاطفة والاحكام ما حمل موتسارت على القول الجاهر من المستمعين : « هذا الصبي جدير بالرقابة . . . انه سيجعل العالم داوياً باسمه » . ولم يبخل موتسارت بنصائحه على الفتى . غير ان الشؤون العائلية نزعت بينهما إذ توفي والد موتسارت واستدعي بتهوفن إلى بلدته على وجه السرعة لدنوّ اجل والدته . وبعد قليل ، اي سنة ١٧٩٢ ، قضى والده ايضاً . ولئن ظل مسؤولاً عن إعالة اخويه الباقيين والاعتناء بتعليمهما وتنشئتهما ، فانه لم يكن له ما يربطه ببلجيكا فهجرها لفينا دون نية في الرجوع

وكان يمكث في عاصمة النمسا يومئذ موسيقي شهير آخر هو يوسف هيدن فتتلمذ له بتهوفن جرياً وراء الاتقان والكمال . إنما ما استفاده من هاتيك الدروس هو رغبة حارة واندفاع وراء الثورة على الاساليب العتيقة واقتحام في التجديد والاحداث . وعاشر كبار القوم من الفنيين والمولعين بالفن ، منهم الكنبجاتي كروتسر الذي عرّفه ببرنادوت سفير فرنسا . فنفث هذا في روعه ان يلحن قطعة من امهات تلحيناته هي « سمفونيا البطولة » التي سيرد ذكرها في مكانها . وهو خلال كل ذلك متابع التلحين والتأليف للبيانو والارغن والآلات الوترية . وكثيراً ما تلتئم الحفلات الموسيقية وتعزف الاوركسترات مصنفات بتهوفن فتصادف ما هي قمينة به من النجاح والاعجاب

ترى بماذا يشتري المرء السعادة والعافية والطمأنينة ؟ أبالفضل والتضحية والنبوغ والإحسان — كما يقولون ؟ لقد جمع كل ذلك في بتهوفن وتشعّع منه ، ولكنه كان من أشقى بني العالمين . وأخذت بوادر تلك العلة القاسية تتسرب الى سمعه ويتفاقم امرها حتى اوصدت دونه عالم الاصوات . وكانت بعذبه الفقر والمسؤولية والجهاد المتواصل ونكران الجميل ممن كان لهم عوناً ، وتراكمت عليه الآلام والخيبات حتى زهد في حياة المدينة .

وعمد الى عزلة هايلجنشتاد قرب ڤينا وهو في الثانية والثلاثين . وهناك كتب «وصيته» الشهيرة في صيغة رسالة كانت في الراجح موجهة الى اخويه ، وقد وجدت بين اوراقه بعد وفاته وتاريخها ٦ اكتوبر ١٨٠٢ ، وهناك سطور من تلك الوصية البالغة في التأثير والحزن :

« اعلموا انتم الذين ترمونني بالكرامة والمرارة ، وتحيزون علي نعوت التوحش والشكاسة ، انكم في هذه التهم أظلم ما تكونون . انكم تجهلون الاسباب الخفية التي تضطرني الى الانفراد والظهور بمظهر الوحشة والنفور . ذلك ان قلبي وفكري متعطشان الى الرفق والحنو منذ نعومة أظفاري ، وبي توق يدفعني دواماً الى تخيُّل اشياء عظيمة نبيلة والسعي الى تحقيقها . ولكني فوق جميع آلامي ومصائبي لجمتُ بصممي في علة لا ارتجي منها الشفاء ولا يزيدها جهل الاطباء إلاّ تفاقماً . وعاماً بعد عام ارى آمالي في تهدُّم وانهيار . لقد جئتُ العالم بنفس حارّة ، وروح متلظية ، ومزاج رقيق حساس ، فصدمتني الاحوال واقسرتني على ان احيى نفسي في العزلة وان افني حياتي في الوحدة والانزواء

«ربَّاه ! إنَّ نظرك من الاعالي يتغلغلُ الى مجاهل ضميري وخفاياه ، وأنت بقلبي عليم ! إنك تدري بان هذا القلب المتفطر لم يخفق قط إلاّ بحبِّ بني الانسان وبالرغبة في الخير والصلاح ! . . »

٣ — أفكاره وعواطفه ومعارفه

لم يكن بتهوفن من أهل العلم والادب وذلك راجعٌ الى النقص في تعليمه الابتدائي . ولكنهُ كان شديد التعصب في اختيار الروايات التي يقوم بتلحينها حتى لقد رفض مرّة خمسين رواية غنائية قبل أن يقرّ قرارهُ على واحدة . وكان ينتهز الفرص للاطلاع على المصنفات القيمة في الادب والشعر والفلسفة . ومع أن مكتبتهُ بقيت ناقصة ، كان مولعاً بالاوديسا لهوميروس ومؤلفات بلطارخ وشكسبير وجوته

ويظهر في تصانيفه الموسيقية انهُ كان ذا عاطفة دينية مشبعة ببعيدة الغور . ولد كاثوليكي المذهب فمارس الطقوس وتمم واجباته الدينية في حداثته ، الاّ انهُ تحوّل عنها بشيوع الآراء الثورية الفرنساوية في اواخر ذلك القرن في جميع انحاء اوربا . فتحمّس للمذاهب الجديدة وكوّن لنفسه عقيدة فلسفية مبهمة ، وتلخصت عندهُ فكرة الالوهية في هذه الجملة المنزلة الى الآلهة مصر إيزيس : « انا كلُّ ما كان ، وكلُّ ما هو كائنٌ ، وكلُّ ما سيكون ، ولن يفلح بشرٌ في إماطة اللثام عن محيّاي » . وكانت هذه الجملة محفورةً على لوحة فوق مكتبه . واتفق ان احد معاونيه وقد فرغ من نسخ التلحين لاحدى

الروايات الغنائية ، ختمها بهذه الكلمة « تمت بعونه تعالى» . فاضاف اليها بتهوفن في الحال
« ايها الانسان ، أعنْ نفسك ! »

ولا شك ان غمومهُ الكثيرة واليأس الذي احاق بنفسه قد تعاونت والآراء الثورية على ضعضعة ايمانه ، غير انهُ عاد بفعل الالم نفسه الى الايمان والابتهال . وصفت العاطفة الدينية في طور النفسي هذا صفاء بديعاً وانجلت في الحيانه الاخيرة حيث جميع الاجواق والانغام تحدث بوجود الله و بحقيقة الاخاء الانساني . وقد خط على احد دفاتره هذه الصيغة المؤلمة : « الهي عضدي وملجاي الوحيد ! انت تقرأ في هاوية نفسي وتعرف ما اكابدهُ من الحسرة والمضض . فاصغ ِ اليَّ ، ايها الكائن الذي احار في تسميته ، واستجب الصلاة الحارة المرسلة اليك من اشقى خلائقك واتعس بني الانسان ! »

وكتب على هامش قطعة « كريليسون » من تلحين القداس الغنائي الفخم الذي صنفهُ :
« خرج هذا التلحين من قلبي . ألا فليهتد الى سبيل القلوب ! »

ولا يمكن اكتناه فنّ بتهوفن دون الوقوف على دخائل فؤاده . فهو كان من الامزجة الحارّة الملتهبة المتأهبة لقبول الحماسة والحمية والاريحية وكل انفعال عذب رقيق او شريف عظيم . كما كان شديد القابلية للحبّ والحنان ، وهو الحرمان المرير الذي نكل بعواطفه طول حياته . فهو في منزل ابويه لم يذق العطف والحنان ، على شدة احتياجه اليهما . ولم يتسنَّ لهُ ان يتزوَّج لاسباب شتى ، منها حالتهُ المالية ، وحدة طبعه التي ورثها من والده ، وثقل سمعه . غير انهُ كان يحترم نظام الزواج ، وكان اسفهُ عظيماً لانهُ حُكم عليه ان يعيش منفرداً وحيداً محروماً حتى الشيخوخة وحتى الممات

ولقد استولت على قواه عاطفة الحبّ غير مرَّة ، دون ان يُعرف لهُ من عشيقة . بل أحبَّ حبَّا صامتاً جملة نساء ، منهنَّ ثلاث او اربع جازف فاختطبهنَّ ليرتدَّ خائباً . واختتم سلسلة تلك الانفعالات الملتهبة بحب كلهُ مودَّة وحنو أبويّ للفتاة الحسناء بتينا برنتانو ، التي اشتهرت بتراسلها مع جوته شاعر الالمان

وكل ذلك الحرمان ، وكل ذلك السعير ، وكلّ تلك العواطف الممزَّقة والاشواق المكتومة ، وكل تلك الصبابة الخنعة بجناحيّ الوحشة والانتباس كلّ ذلك وجد لهُ منفذاً الى الفنّ السحري فنّ الانغام والالحان . وهذا ما تمتازُ به موسيقى بتهوفن ، وليس بين اقطاب الفنّ من هو ادنى الى النفوس منهُ

ميدانهُ القلب الانسانيّ . انهُ لا يخرج منهُ ، ولا يبتعد عنهُ ، غير انهُ يتملكهُ بحذافيره

ويعالج كلَّ ما فيهِ من عواطف ونزعات واوجاع وافراح، كل ما فيهِ من مطلب لا يوضع ومذلَّة لا تباح ، في جوعٍ وعطشٍ وشوقٍ وذكرى . يعالج منهُ العظمة واليأس والرفعة والشجاعة والنبل فيعرّف كلَّ ما يختلج فيهِ بالالحان البليغة السحّارة الاخّاذة الفتّانة

هذا شيءٌ من بتهوفن الذي يحتفي عالمُ الفنِّ بمرور مائة عام على وفاتهِ في ٢٦ مارس الحالي . فهو ليس فقط كبير الموسيقيين وأطهرهم عاطفةً وأتمّهم وحياً . ولكنهُ خصوصاً القلب الكريم المحروم وارث آلام البشر ومصائبهم وتحكّم الاقدار فيهم الذي تغلّب عليها جميعاً وانتصر بمجد العبقرية والابداع

هو بطل الابطال الذي كان أكبر من عصرهِ . فبسط من مقدرتهِ أشعةً وسيولاً لتحتضن الازمنة والاجيال في اوشحةٍ منسوجة بالدّيباج والانشاد

(التتمة في الجزء الآتي من فن بتهوفن وتحليل اعظم تلحيناته) « مي »

حرية الفكر ومقاومتها

وكتاب « الدولة الاموية في الشام »

قلما ظهرت حرية الفكر في امر مخالف لرأي الجمهور وتصدّى البعض لمقاومتها الأ كانت النتيجة تعزيز ذلك الامر حتى لقد جعل بعض المؤلفين يوعزون الى اصدقائهم لينتقدوا كتبهم انتقاداً شديداً فيزيد اقبال القراء عليها

لدينا مثل واضح في الكتاب الذي الفهُ الشيخ علي عبد الرازق وموضوعهُ (الاسلام واصول الحكم) فان الانتقاد الشديد الذي لقيهُ وتألب علماء الازهر على مؤلفهِ افضيا الى زيادة الاقبال على مطالعتهِ . ويقال ان محاكمة الاستاذ سكوبس في اميركا لتعليمهِ مذهب داروين ادّت الى الاقبال على الكتب التي تشرح هذا المذهب . ومن المحتمل ان الانتقاد الشديد الذي لقيهُ كتاب الاستاذ طه حسين في نسبة الشعر الجاهلي افضت الى الاقبال عليهِ وازدياد البحث في هذا الموضوع ولكنهُ سُحب من المكاتب التي تبيعهُ وهو يطلب الآن باضعاف ثمنهِ الاصلي ولا يوجد

في خزائن مصر والشام والعراق الوف من الكتب التي تفسد الاذواق والاخلاق ولا احد يشنأها او يُعنى بها لا من رجال الدين ولا من رجال السياسة ولو فعلوا ومنعوا مطالعتها لاشتدَّ الاقبال عليها مصداقاً لما قيل « احبُّ شيءٍ الى الانسان ما منعا »